من أحاديث الزراعة (*)

بين الزوجـــين

للأســـتاذ على الطنطاوى

يا سادتى ويا سيداتى . قعدت لأكتب هذا الحديث ، فما بدأت به حتى هبت العاصفة فى بيت الجيران ، وعلت الأصوات ، وزمجر الرجل وصخب ، وولولت المرأة وعيّطت(١) ، وقام الشيطان يهيج للشر ويضحك ، ثم هدأت العاصفة فجأة كما هبت فجأة ، وأعقبها سكون ثقيل ، سمعت له دوياً فى أذنىّ شغلنى عن الكتابة ، فقمت أنظر ما ذا جرى . فإذا الزوج قاعد فى ركن المنزل ينظر فى جريدته عابساً ، ولا أظنه يفقه منها حرفاً ، والمرأة فى الركن الآخر تطرز ولا أحسبها تاق لتطريزها بالا ، هو يندب حظه بحسب أنه وحده المخائب فى زواجه ، وهى تبكى جدّها تحسب أنها وحدها التى فقدت سعادتها ، ورأيت الولد قد ملّ هذا السكون ... فمشى إلى أبيه خائفاً يترقب ، فقال له :

— بابا . اعطنى شكولاته

— فصرخ به زاجراً . قل لأمك . أتريد أن أخدمكم فى السوق وفى البيت ، وأن أعمل عمل الرجل والمرأة ؟ !

فابتعد عنه الولد ، ونظر إلى أمه ، فصاحت به من غير أن ترفع رأسها عن شغلها :

— ابتعد عنى وإلا كسرت رأسك ، أنت أصل السبب ، يا ضيعة تعبى ، أشقى من الصباح إلى المساء فلا أجد من يقول لى : الله يعطيك العافية !

فهمّ الرجل بالانفجار ، ثم تماسك وتجلد ، وسكت على غيظ ومضض ، ومشى الولد إلى الأريكة فتكوّم عليها ، ودس وجهه فى وسادتها ، وراح يبكى بكاء خافتاً متصلا موجعاً !

وعاد البيت ساكتاً كما كان ، ومرت دقائق ، لمحت فيها على وجه المرأة ظلال نزاع عنيف فى نفسها ، بين شفقتها على ولدها ، وغيظها من زوجها ، ثم رأيتها تثب فجأة ، فتمضى إلى غرفتها فتنبطح على سريرها وتنشج ... ورفع الرجل رأسه ، متعجباً منها ، وبضيق صبره عن هذه المسرحيات (تمثل) فى بيته ، وهو يريده بيتاً فيه الهدوء والمحبة ولا يفهم سر بكائها وهى — عنده — الظالمة ، فيمضى إليها بعد تردد ، حتى يقوم أمام السرير منتصباً مربد الوجه ، كأنه القائد العسكرى فى جنده ، أو النائب العام فى مقعده ، ويقول لها بصوت بارد كالثلج متماسك كالجلمد :

— وما آخرة هذه المساخر ؟

وكانت تظنه قد جاء يواسيها فى كربتها ، ويعطف عليها ، ويحاول أن يفهم ألمها ، ويزيح همها ، فلما سمعت ذلك منه ، فقدت عقلها ، فصاحت :

— مساخر ؟ أنتم الرجال ليس عندكم وفاء ، ليس لكم قلوب ، إنكم ...

فنسى أنه أمام امرأة ، وأنه أمام زوجة ، وحسب أن الذى يقول له هذا الكلام قرن له أو خصم ، فأجابها جواب الأقران ، وكلها كلام الخصوم ، ولم يبق بينها وبين الطلاق إلا شعرة واحدة .

فقلت لها : بس ، انتظروا ، قولوا ، ما هى الحكاية ؟

فنظرا إلىّ ، وحسباني (وأنا قريبهما) عفريتاً قد نبع من الأرض فقزعا منه ، ثم اطمأنا إلىّ وعرفانى ، وانطلقا يتكلمان بصوت واحد كلاماً متواصلا متداخلا ، تتلاحق كلماته ، كأنه السيل انهدم سدّه فاندفع ، أو لسان النار غفلت عنه فاندلع ، وما فهمت الحكاية حتى كادت نفسى تزهق ...

و (الحكاية) التى سببت هذه النكبة ، وكادت تهدّ بيت الزوجية ، وتطلق الزوجة وتشرد الولد ، أنه جاء من عمله فوجد الصبى على الباب ، والباب مفتوحاً ، وليس عنده أحد يمنعه أن يمشى فيضل فى الحارة ، أوتدعسه(١) سيارة ، أو تلفحه الشمس ، أو يصيبه المرض ، وتخيل ألف مصيبة قد حاقت بالصبى ونزلت به فاستحال حبه له حقداً على أمه التى أهملته ، وتركته على شفا

(*) سجل فى مصر وأذيع من محطة الشرق الأدنى يوم (٢٨) و(٢٩) مايو

(١) (عيط) فى الشام لياح وفى العربية كذلك (تقريباً) وفى مصر بكى.

(١) دعسه السيارة : وطئته ؛ أما قولهم دهسته فهو من الغلط .

الهلاك ، ودخل مغضباً محنقاً ، وبدأها باللوم قبل السلام ، وكانت قد نظفت الدار وأعدت الطعام ، و(لبست ...) تنتظر وصوله ، لتسعد بقربه ، وتجد مكافأتها فى شكره إياها ومسرته منها ، فلما رأته مخاصماً تبدد أملها ، وخاب ظنها ، وسيطر عليها الغضب ، حتى أعماها عن حادثة (الباب المفتوح) والخطر المرتقب ، فلم تر فيها إلا حادثة تافهة ، لم ينشأ عنها شيء ولم يأت منها ضرر .

وبدأ من هنا الخلاف ، وتطاير الشرر

ياسادتى وياسيداتى: هذه صورة ترون كل يوم أمثالها ، فاسمحوا لى أن أجعل حديثى هذه العشية تعليقاً عليها ، وبياناً لها ، وليست صورة غريبة عنكم ولا نادرة ، بل الغريب النادر أن تخلو دار منها ؛ وأنا قاض شرعى عملى أن أرى دائماً داخل البيوت ، وأن أطلع على أسرار الأسر ، فصدقونى إذا قلت لكم ، إنى لا أعرف زوجين لا يختلفان ، ولكن خلاف الأزواج كحريق فى كومة من القش ملقاة فى رحبة الدار ، إذا أطفأته أو تركته ينطفئ بعد بعد لحظة ، وحمل الريح رماده ، فلم يزالك رزءاً ، ولم يعقبك أذى ، وإن هجته أو أذنيت منه ثوبك ، أو قربته من بيتك ، احرق الثوب وخرب البيت ، ولقد كان بينى وبين زوجتى اليوم خلاف كهذا ، فقلت لها :

— تعالى أعينينى على كتابة مقالة ؟

وكانت هذه المقالات ضرتها ، فحسبتنى أسخر منها ، واندفعت تريد أن (تقول) ... فما زلت بها أكلمها بجد ، حتى بدا عليها الاهتمام وقالت :

— وكيف أعينك ؟

قلت : تقولين لى كيف يختلف الأزواج ؟

ومضينا نستعرض حوادث الاختلاف بيننا ونحلل أسبابها فانتهينا إلى الضحك منها

يا سادة ويا سيدات : إنه قد يكون بين الزوجين اختلاف مفهوم على مال أو عقار ، ولكنه نادر وأكثر الخلاف تافه مضحك ، ليس له إلا عندها قيمة أو خطر ، وأنا أفهم أن تهتم المرأة بهذا ، ما دامت تريد أن تشغل عقلها كما تشغل يدها ، وما دامت لا تجد مشكلة علمية أو أدبية تبحث فيها وليس لها إلا مشاكل البيت — ولكن ما بال الرجل يهتم بها ويبالغ فى تقديرها ؟

تقولون : كيف نصنع ليسود البيت السلام ويشمله الهدوء ؟

أنا أقول لكم ؛ مقالة مجرب حكيم ، فاستفيدوا إن شئتم من حكمتى وتجربتى

هذه (أقراص) سهلة البلع ، عظيمة النفع ، فيها شفاؤكم من هذا الداء :

أولها : أن الزواج يبدأ بالحب والعاطفة ، والحب أوله حلاوة وآخره مرارة ، فهو يعمى البصر ، ويصم الأذن ، ويغطى العيوب ، فإذا زال الغطاء ، ولا بد يوماً أن يزول الغطاء ، وبدا المحجوب من العيوب ، وظهر المستور من الأمور ، وافتقد الزوجان لذة الحب فلم يجداها ، انتهى شهر العسل ، وبدأت سنوات العلقم ، فتجرعا العمر كله مرها ، وقاسيا ضرها . والدواء ألا يرقب الزوجان المحبة والعشق ، فالحب عمره كعمر الورد ، لا يعيش إلا أمداً قصيراً ، ومن طلبه بعد عشر سنين من الزواج كان كمن يطلب من وسط القبر من العظام والرمم الفادة الحسناء والفاتنة الهيفاء . لا ، ولكن مودة وإخلاص وحب كحب الأصدقاء والإخوان .

وثانيها : أن الرجل يغتفر لصديقه ما لا يغتفر لزوجته ، ويحمل منه ما لا يحمل منها ، ويتسامح معه فيما لا يتسامح فيه معها ، وما ذلك إلا لأنه يصدق هذه الخرافة التى تقول إن الرجل والمرأة كليهما مخلوق واحد ، فهو يريد منها أن تفكر برأسه ، وهى تريد منه أن يحس بقلبها ، مع أن الناس كخطوط مستطيلة وفيها اعوجاج يسير ، فإذا كانت متباعدة بدت للعين متوازية متوافقة ، تضيع من البعد هذه الفوارق الصغيرة بينها ، فإذا تدانت وتقاربت ، بانت الفجوات ، فأنت تصحب الصديق عشرين سنة ، فلا ترى بينك وبينه اختلافاً ، ثم ترافقه أسبوعاً فى سفر ، تنام معه وتأكل وتشرب فترى فى هذا الأسبوع ما لم تره فى السنين العشرين ، فتشئوه وتبغضه وقد كنت تحبه وتؤثره .

والله لم يخلق اثنين بطباع واحدة ، لا الصديقين ولا الزوجين ، فليكن الزوجان متباعدين قليلا ، حتى لا يظهر الاختلاف بينهما ، وليكن بينهما شيء من الكلفة والرسميات ... كما يكون في عهد الخطبة وأوائل الزواج ، ولتكتم عنه بعض ما في نفسها ، وليكتم عنها بعض ما في نفسه ، فإنه ما تكاشف اثنان إلا اختلفا . وما زالت الكلفة إلا زالت معها الآلفة ، لأن المرء يتظرف ليظرف ، ويتلطف ليلطف ، ويساير الناس ليحبه الناس ، فإن لم يفعل ثقل عليهم ، وأنا أعرف رجالا من أهل النكتة والظرف ، يحرص الناس عليهم في مجالسهم لخفة أرواحهم ، وحلاوة أحاديثهم ، إذا دخلوا بيوتهم كانوا أجهم الناس وجها ، وأبيسهم لسانا ، وأثقلهم نفساً ، وما ذاك إلا لإسقاط الكلفة ، وإذهاب المجاملة .

وثالثها : أن الرجل يمشي في الطريق فلا يرى إلا نساء في أحسن حالاتهن ، قد طلين وجوههن ، وجملن ثيابهن ، ثم يدخل داره ، فيرى زوجه على شر هيئة ، وأقبح صورة : مصفرة الوجه ، قذرة الثوب ، منغمسة في أوضار المطبخ ، أو غارقة في غبار الكنس ، فيظن أن نساء الطريق من طينة غير طينتها ، وأن عندهن ما ليس عندها ، فيميل إليهن وينصرف عنها ، والدواء أن تكون المرأة عاقلة ، فلا تجعله يراها إلا في الهيئة التي تخرج فيها من بيتها ، وتستقبل عليها ضيفها ، ولا تدعه يبصرها نائمة ولا يراها بغير زينة ، ولا يطلع عليها في مباذلها وأعمالها .

ورابعها : أنه لا بد لكل شركة أو جماعة من رئيس ، فإن كان في المركب رئيسان غرق المركب ، ولو كان في السماء والأرض إلهان فسدت السماء والأرض ، فلا بد من ترئيس أحد الزوجين والرجوع عند الاختلاف إلى رأيه ، واعتراف الثاني برياسته ، وعلى الرئيس بعد أن يكون حاكما بعدل ورفق ، وعلى المرؤوس أن يكون طيّعاً بفهم واحترام .

وخامسها : لا بد لدوام المودة من اغتنام الفرصة لإظهار العاطفة المكنونة بحديث حلو ، أو مفاجأة منه : هدية ولو صغرت ، وطرفة ولو قلّت ، واهتمام منها بصحته وراحة نفسه ومطعمه وملبسه وكتبه ، وأن يصبر كل منهما على غضب الآخر وتعتبه

يا سادة : إن مشاكل البيت هينة سخيفة ، ولكنها إن استفحلت نغّصت العيش وسودت وجه الدنيا ، ولم ينفع معها ملك ولا مال ، فلقد كان الامبراطور نابليون الثالث يجد من مكارهها ما لم ينجه منه ملكه . وكان الرئيس لنكولن يلقى من متاعبها ما لم يخلصه منه سلطانه ، وإني لأستأذن السيدات المستمعات بأن أختم هذا الحديث بكلمة لامرأة مثلهن هي (آن شرر) . قالت :

« إن بين كل عشر نساء تسعاً يحرصن على مضايقة الرجل ، وتنكيد عيشه ، ولهن إلى ذلك وسائل لا تحصى ، وهن يعتقدن أنه لا عمل للرجل إلا الثناء على جمالهن بوجه كله ، وامتثال أوامرهن ، وإجابة رغباتهن ، وإذا رأينه مقبلا على قراءة أو كتابة أو عمل له ، اقتحمن عليه مكتبه ، ونفضن في وجهه من المنفضات ما يحيل عزلته سجناً ، وحياته جحيما »

فيا سيداتي المستمعات : أرجو أن لا تكون فيكم واحدة من هؤلاء !

(القاهرة) علي الطنطاوي

عبد المعطي المسيري

يقدم كتابه الجديد

روح وجسد

مجموعة قصصية جديدة ، صور صادقة لخلجات القلوب ، وهمسات النفوس : اثنتا عشرة قصة قصيرة تتميز بجمال الأسلوب ، وروائع الوصف ، وعمق التحليل .

طابعها الخاص مكن لها في الفوز برضاء وإعجاب المستشرقين والهيئات ومحطات الاذاعة العالمية .

أذيعت من محطات لندن ، والشرق الأدنى ، وفلسطين ، وبيروت ، وأم درمان

يطلب الكتاب من مكتبة « البنا » بدمنهور ومكتبة مصر بالفجالة ومكتبة فكتوريا بالإسكندرية ، والمكاتب الكبرى . الثمن ١٥ قرشاً